

قواعد القانون الدولي الإنساني

ودور الأمير عبد القادر الجزائري في إرسائها

الدكتور بن داود براهيم

جامعة زيان عاشور الجلفة

مقدمة:

لقد عاشت البشرية عل وقع الحروب دهورا من الزمن، حيث كانت سنين الحرب في تاريخ الإنسانية أكثر من سنوات السلم، فعلى امتداد خمسة آلاف سنة حدثت 14555 حربا تسببت في موت 25 مليار إنسان تقريبا، وعلى امتداد 3400 سنة الأخيرة من حياة البشر لم تنعم الإنسانية إلا بمائتين وخمسين سنة سلام فقط. وفي إحصاء آخر شهدت البشرية 213 سنة من الحروب الفتاكة مقابل سنة واحدة من السلام وأنه خلال 185 جيلا لم تنعم بسلم مؤقت إلا عشرة أجيال فقط.

فبدئا من الحرب العالمية في القرن العشرين شهد العالم أكثر من 250 نزاعا مسلحا دوليا وداخليا بلغ عدد ضحاياها 170 مليون شخص أغلبهم من المدنيين العزل وجل هؤلاء من الأطفال والنساء، أي بمعدل نزاع مسلح كل خمسة أشهر.

إزاء هذا كله كانت شريعتنا السمحة وبما أنزل على الحبيب المصطفى قد أرسيت نظرية متكاملة لحماية الإنسان ليس في فترات السلم فقط بل حتى في الفترات العصبية من النزاع المسلح. ويكفي أن كان السلام سمة الإسلام فاشتق اسمه من السلام والأمان، وجاءت العديد من الآيات المؤكدة للسلام ومعانيه قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾¹. وقد اختار الحق تبارك وتعالى من أسمائه الحسنى اسم السلام، ومن نور السلام انبثق الإسلام وبشائره والأمن وفضائله.

وقد جاء لفظ الإسلام والسلام في العديد من الآيات منها قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾² وقال عز وجل أيضا ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلِمُوا تَسْلِيمًا﴾³.

وقد كانت تحية السلام، السلام عليكم قال تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ﴾⁴.

هذا ما جعل الباحثين والمختصين من الغرب يقرون سماحة رسالة الإسلام وسماحة ما جاء به خير الخلائق محمد صلى الله عليه وسلم فهذا DELACY O'LEAR يقول "إن التاريخ أوضح بما فيه الكفاية أن أسطورة المسلمين الذين ساحوا في العالم ينشرون الإسلام بحد السيف واحدة من أسخف الخرافات التي ظل

المؤرخون الغربيون يرددونها" ⁵؛ ويقول الكاتب TRITON "إن صورة المسلمين المحاربين الذين يتقدمون بالقرآن في يد والسيوف في يد صورة بالغة الزيف" ⁶.

ويقول LEONARD "إني أجد نفسي مجبرا على الاعتراف بأن محمدا (صلى الله عليه وسلم) يرفض ولا يقبل العنف في الدين" ⁷.

ويقول جوستاف لويون " كانت الطريق التي يجب على الخلفاء أن يسلكوها واضحة، فعرفوا كيف يحجمون عن حمل واحد بالقوة على ترك دينه، وأعلنوا في كل مكان أنهم يحترمون عقائد الشعوب وأعرافها وعاداتها" ⁸. وقد كان للإسلام السبق في تنظيم ظاهرة الحرب ولا عجب من دين اتسم بالوسطية والاحترام والاعتدال، أن يفرض الرحمة والإنسانية حتى في سير المعارك، وهذا ما غفلت عنه كل الأمم السالفة ⁹.

ومن يتمعن في تراثنا الإسلامي، ويطلع على ما دونه علماؤنا الأجلاء وعلى رأسهم الإمام أبو الحسن الشيباني، يجد تحليلات الرحمة في الحرب ويلاحظ بجلاء ووضوح أن الإسلام ينجح دوما إلى تغليب الأبعاد الإنسانية في سير المعارك ويحمي ضحاياهم ويضمن حقوقهم.

والأجل فيما سبق أن نجد تحليلاته على أرض الواقع من لدن رجال صدقوا الله ما عاهدوا عليه فنجد ليلهم قياما وتفكرا ونهاركم مجاهدة وتذكرا، يجتهدون أيما اجتهد في إقامة تعاليم الشرع الحكيم في أحلك الأوضاع والظروف، ولا يخشوا في ذلك لومة لائم، غير بعيد عن هذا الوصف نجد الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري الأعرف بأن يُعرف الذي شهد بمقاماته وصولاته وجولاته الأعداء قبل الأصدقاء والمحبين، فكان من خيرة من عرفهم التاريخ الإسلامي بل التاريخ الإنساني، فكان حال الحرب أكثر إنسانية من حال السلم، وحال الاغتراب، أرقى من حال الاقتراب.

ثم إن العالم اليوم يشهد العديد من الحملات التي تمس بالإسلام ديننا وحضارة وثقافة سواء بسبب سوء تصرف أبنائه أو جراء تكالب غير المنتسبين إليه، وسيكون لحديثنا عن الأمير عبد القادر الفيلسوف والمفكر والزاهد والأمير والعسكري والدبلوماسي أثر بالغ في إبراز معاني العدالة والحرية والقيم الرفيعة. والحديث عن هذا الرجل الفذ يعد رسالة نبعث بها إلى الطرف الآخر لإبراز وبيان الكثير من سمات التقدم والتحضر الفكري والدبلوماسي للتعامل الإسلامي في شتى الميادين. أهمية الدراسة: تتضح أهمية الدراسة من خلال بيان:

كون أن رسالة القائد المسلم تتسم بحمل لواء السلام، وقد جاءت رسالة الإسلام لإذاعة الأمن والخيرية والمساواة والرحمة، حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم نبراسا يستضاء به لتجسيد هذه القيم التي جاءت للعالمين، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ¹⁰.

بيان أن الأمير عبد القادر الجزائري كان مثالا حيا للقائد الحكيم الورع العارف بأمور دينه ودنياه، وكان بصفائه وتصوفه مقتديا بسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي كان الرائد في الأبعاد الأخلاقية لمعاملة الإنسان

لأخيه الإنسان زمن السلم وزمن الحرب، وهو أول من أرسى الأبعاد الأخلاقية حيث قال نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح.

المهدف من الدراسة: تهدف الدراسة إلى الوقوف عند بيان معالم الرحمة والإنسانية زماني السلم والحرب التي اتسم بها الأمير عبد القادر في محاربته للمستعمر الفرنسي وكيف كان يُحسن للأسرى والمعتقلين، وكيف أنقذ العديد من المسيحيين في دمشق أمام مشهد مروّع كاد أن يؤدي إلى فتنة كبرى، وكان الأمير عبد القادر الجزائري مقتدياً بمن حقت له النسبة إليه وهو المصطفى صلى الله عليه وسلم و الأخذ ببعض من قبسات سيرته العطرة في إرساء قواعد القانون الإنساني في حماية الأطفال والنساء والعزل أثناء قيام النزاع المسلح، هذا النزاع الذي أكدت أحاديث المصطفى على تجنبه، وأن الشريعة الإسلامية جاءت لإشاعة السلام وإذاعة الأمان، كما تهدف الدراسة إلى بيان معالم الرحمة في شخص الأمير عبد القادر الجزائري، ونظرته السامية إزاء تكريس حقوق الإنسان ورحمة المستضعفين، ومن جهة أخرى بإجلاء الرؤى إزاء الشبهات المثارة إزاء الإسلام وتجاه الرسالة المحمدية.

منهج الدراسة: تم الاعتماد على المنهج التحليلي والوصفي بتحليل معنى قواعد القانون الدولي الإنساني التي جاء المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام للتأكيد عليها.

الإشكالية: تتمحور إشكالية البحث حول تجليات الأبعاد والممارسات الإنسانية للأمير عبد القادر الجزائري، وإسهاماته في تحقيق معالم الحوار الإنساني والحضاري.

خطة الدراسة: تضمنت خطة الدراسة النقاط الرئيسية التالية:

أولاً: الأبعاد الإنسانية للأمير عبد القادر ومورد الإقتداء بالسير النبوية

01/ الأمير عبد القادر الجزائري

02/ محل الاهتمام وموضع الإقتداء لدى الأمير عبد القادر الجزائري

ثانياً: الأمير عبد القادر وإرساء معالم القانون الدولي الإنساني

01/ فتنة دمشق ونجاح الأمير في إطفائها

02/ الأمير عبد القادر وإرساء سمات القانون الدولي الإنساني ومعامله

أولاً: الأبعاد الإنسانية للأمير عبد القادر ومورد الإقتداء بالسير النبوية

01/ الأمير عبد القادر الجزائري: يعتبر الأمير عبد القادر الجزائري من كبار رجال الدولة الجزائرية، فهو مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة ورائد المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي بين 1832 و 1847، كما يعد أيضاً من كبار رجال التصوف والشعر وعلماء الدين، فقد كان داعي سلم وسلام وتآخي بين مختلف الأجناس والديانات وهو ما فتح له باب الإعجاب والثناء من لدن كبار السياسيين في العالم.

هو عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى أشتهر باسم الأمير عبد القادر الجزائري ولد في يوم الجمعة 23 رجب 1222/1807م بقرية القيطنة الواقعة على وادي الحمام غربي مدينة معسكر، وترعرع في كنف والديه حيث حظي بالعناية والرعاية في مجالي التعليم والتربية الإسلامية الرفيعة.

وقد توفي الأمير عبد القادر يوم 26 ماي 1883 في دمر ضواحي مدينة دمشق عن عمر يناهز 76 سنة، دفن بجوار ضريح محي الدين بن عربي الاندلسي، نُقل جثمانه إلى الجزائر في عام 1966. من مؤلفاته:

ذكرى العاقل وتنبيه الغافل

المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد

مذكرات الأمير عبد القادر

المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد

وقد غلبت الصفة السياسية على الأمير عبد القادر الجزائري فلا نكاد نجد في الكتب التي تؤرخ للنهضة العربية ذكرا لهذا الأمير الفذ إلا وهو مرتبط بثورته ضد فرنسا، أو بوقوفه ضد الحرب الطائفية عام 1860، أو بتبيان علاقته بالدولة الفرنسية أو زيارته المتعددة إلى الأستانة ومصر وباريس، وحصوله على الأوسمة والمنح. والحق أن عبد القادر الجزائري -إلى جانب هذا كله- رجل فكر متبحر في علوم الدنيا والدين وقد كانت له آراء خاصة في قضايا العقل والأخلاق واللغة والتصوف مما يجعله قمينا بأن يُدرج في عداد رجالات النهضة الإنسانية، مع تميزه عن جلهم بأنه رجل سياسة وفكر في آن واحد.

02/محل الاهتمام وموضع الاقتداء لدى الأمير عبد القادر الجزائري: بالرجوع إلى رسالة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم نجد أنها قد اتسمت بالسلام ونبذ كل عنف وظلم واعتداء، والأصل في علاقة الأمة المحمدية بالأمم الأخرى المسالمة، ويقول في ذلك الحق تبارك وتعالى ﴿وإن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾¹¹، ويؤكد الإسلام على أن الدعوة ينبغي أن تكون على أساس الحكمة والموعظة الحسنة، وفي هذا يقول تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾¹².

ويتأكد لنا من خلال سيرة النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا الدين لم يكن يوما داعيا للحرب أو متعطشا للدماء، وتؤكد الاتجاه المسالم للإسلام في تعامله مع غيره ولم يكن هنالك أي مجال للإكراه في الدين ضمن شريعة الإسلام، وفي هذا يقول عز وجل ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾¹³. وقد كان المسلمون في صدر الإسلام قد وجدوا أنفسهم أمام ضغوط عنيفة واعتداءات مستمرة أدت إلى صدام مسلح مع الأعداء المناوئين لرسالة الإسلام، هذا ما جعل المسلمين يتصدوا لدفع العدوان، ولهذا جعل الإسلام البداية في القتال من قبل الأعداء من بين أسباب رد هذا القتال قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾¹⁴، وقال أيضا ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾¹⁵.

وبالتالي فإن رد الاعتداء لا يكون إلا بقدر ما صدر من المعتدي فالإسلام جاء هاديا لا محاربا، وقد صرح الفقهاء بأن مناط القتال هو الحاربة والمقاتلة والاعتداء أي دفع العدوان، وليس الدافع هو الكفر.

ومما جاء به الحبيب المصطفى من قواعد لحماية الإنسان زمن النزاع المسلح أو ما يسمى اليوم بقواعد القانون الدولي الإنساني وصيته لعلي بن أبي طالب ولمعاذ بن جبل حيث قال لهما في غزوتين مختلفتين ل (لا تقتلوهما حتى تدعوهم إلى الإيمان فإن أبو فلا تقتلوهما حتى يقتلوهما ويقتلوهما منكم قتيلا، ثم أروهم هذا القتل، وقولوا لهم هل لكم خير من ذلك بأن تقولوا لا إله إلا الله،..فلإن يهدي الله على يديك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت).

وقد جاء في وصية النبي صلى الله عليه وسلم لقادة الجيش في غزواته حيث قال (انطلقوا باسم الله وعلى بركة رسوله، لا تقتلوا شيخا ولا طفلا صغيرا ولا امرأة ولا تغلوا (أي لا تخونوا) وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين). رواه أبو داود والدارمي.

كما نهى المصطفى صلى الله عليه وسلم عن المثلة أي التمثيل والتنكيل بالجثث فقال صلى الله عليه وسلم (ياكم والمثلة ولو بالكلب العقور) رواه أبو داود والدارمي، وقال أيضا (لا تقتلوا ذرية ولا عسيفا ولا تقتلوا أصحاب الصوامع) حديث حسن رواه أحمد وأبو داود. وعن أبي بكر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من قتل معاهداً في غير كنهه حرم الله عليه الجنة) (حديث صحيح رواه أبو داود والنسائي).

وأخرج أحمد وأبو داود عن رباح بن ربيع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على امرأة مقتولة في غزوة غزاهما، فغضب وقال (ما كانت هذه تقتل) (رواه أحمد وغيره وصححه الحاكم وأصله في البخاري).

ثانيا: الأمير عبد القادر وإرساء معالم القانون الدولي الإنساني
1/فتنة دمشق ونجاح الأمير في إطفائها: لقد اتسمت حياة الأمير بعد نفيه إلى دمشق بالهدوء والاستقرار حيث عكف على التعليم والكتابة والتعبد وكل أفعال الخير الأخرى، وكان رجلا فيلسوفا وكاتبا وشاعرا وأكثر من هذا كان إنسانا عالميا يقدر معنى الإنسان والإنسانية.

هذا إلى أن حصلت أحداث عام 1860 التي اتسمت بخطورتها على كل الأصعدة مما عكر صفو الأمير عبد القادر الذي تعامل إزاء هذه الأحداث بكل صفاء وإنسانية.

هذه الأحداث التي تلخصت في أن المسيحيين عانوا الكثير جراء المضايقات الكثيرة التي تعرضوا لها في ممارستهم لمشاعرهم، إلى أن تم التدخل من فرنسا وانكلترا لمنحهم حقوقهم، فتحقق لهم ذلك، فلم يهضم بعض المسلمين تصرفات استفزازية في هذا الشأن من طرف المسيحيين.

ورأى بعض الباشوات خاصة باشا دمشق ضرورة إعداد مذابح لتقديم برهان مثير للحكومة.

سمع الأمير بذلك فأمر الجزائريين البالغ عددهم 700 من المرابطين في ضواحي دمشق أن يدخلوا بمجموعات صغيرة إلى المدينة حتى ينظموا إلى 300 من الجزائريين الموجودين داخل المدينة من قبل وأمرهم بالتوجه للمقاهي والأسواق في شكل مجموعات صغيرة حتى يقفوا في وجه أي إراقة للدماء.

وفي صباح يوم 08 جويلية 1860 رسمت فوق أرصفة شوارع المدينة أشكالا للصلبان، وسرت العملية بسرعة من طرف الأولاد الذين راحوا يوجهون الشتائم إلى تلك الشارات المسيحية، وعندما كان يمر شخص مسيحي كانت الشتائم تتضاعف، ويجد المسيحي نفسه مرغما على دوس الصليب تحت طائلة الضرب. ووقت الظهيرة ترددت صرخات من جهة حي باب تومة (حيث تقطن أغلبية مسيحية) تلتها طلقات نارية وتوجه الفاروق إلى قنصليات روسيا والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا. وتوجه عبد القادر خلال إشارة الإنذار الأول رفقة ضباطه المخلصين إلى قنصلية فرنسا وتبعه نفر من المغاربة.

علم أن قوات الباشا كانت بالقلعة وأن المذبحة ستبدأ وأن بيوتهم قد أحرقت فوصل الأمير إلى القنصلية محاطا بأربعين جزائريا تولوا فورا أمن المبنى وأثناء ذلك كان الجزائريون الباقون قد هرعوا بأمر من عبد القادر، وتجمعوا في منزله عندما رجع وجد في حمايتهم عددا من المارة من ممثلي القنصليات وخاصة قناصل أمريكا، روسيا واليونان.

أعطى الأمير تعليمات لرجاله الباقين في منزله وخرج على رأس 300 رجل يتبعه ولداه وانقضى إلى الأحياء المضطربة فدخل وسط الجمهور متقدما على فرقة مناشدا المسلمين أن يرجعوا للعقل وداعيا المسيحيين إلى الاحتماء خلفه، ومن قنصلية اليونان فقط تم إجلاء حوالي 300 شخصا، وكان الأمير كلما جمع جمعا من النصارى أحاطهم برجاله وقادهم إلى منزله، وعاد فورا للبحث عن آخرين. عند حلول الليل تذكر الأمير مؤسسة أخوات المحبة التي كانت تضم 400 طفل من الجنسين فاحتاز الشوارع مجددا ووصل إلى الدير البعيد عن الحي، الأمر الذي سمح له بإنقاذ الرهبان الستة وأخوات المحبة الإحدى عشر والأربعمئة طفل.

وأرسل الأمير مائتي جزائريا ببنادقهم إلى مختلف الأحياء لاستقبال كل المسيحيين وكان قد تكدس حوالي 04 آلاف مسيحي، وجاءت جماهير كبيرة من المسلمين مطالبة بتسليم المسيحيين لكن الأمير شدد اللهجة أمامهم وأن له رجالا مدججين بالبنادق.

وسعى الأمير لتوفير الغذاء والعلاج لهؤلاء جميعا وأعلن الأمير أنه سيدفع ب 50 قرشا لكل من يأتيه بمسيحي حي.

هذا العمل الجبار الذي قام به الأمير كان محل إعجاب الكثيرين وشهدت له القوى الكبرى وبعثت له برسائل شكر مصحوبة بمدايا وأوسمة، فأهدته أولا أمريكا مسدسين مرصعين بالذهب وإيطاليا الشريطة الكبرى ومنحته روسيا وسام الصليب الأكبر للنسر الأبيض وفرنسا وسام فرقة الشرف من الدرجة الأولى وغيرها كثير. بعد عامين من هذا العمل أرسل الأب أنطوان أوغست بافي أسقف الجزائر رسالة ثناء للأمير جزاء إنقاذ الأمير للمسيحيين بدمشق أجابه "والذي فعلناه من الخير مع المسيحيين جزاء لازم علينا بمقتضى الشريعة المحمدية وحقوق الإنسانية إذ الخلق كلهم عيال الله تعالى وأحبهم إليه تعالى أنفعهم لعياله وجميع الشرائع التي جاء بها

الأنبياء من آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم تدور على أصليين، تعظيم أمر الله تعالى، والشفقة على مخلوقاته".

02/ الأمير عبد القادر وإرساء سمات القانون الدولي الإنساني ومعاله: يعد الأمير عبد القادر أول من قام بوضع أسس القانون الدولي الإنساني منذ عام 1837، وهذا حتى قبل ظهور أفكار هنري دينون مؤسس حركة الصليب الأحمر، بل حتى قبل إبرام معاهد جنيف التي لم تكتمل إلا في عام 1864، ويحفظ التاريخ للأمير عبد القادر الكثير من المواقف الإنسانية الرفيعة فقد عمل أثناء معاركه ضد الغزو الاستعماري الفرنسي للجزائر على سن وتطبيق مجموعة من القوانين حول كيفية معاملة الأسرى والمعتقلين من جيش العدو ومن ذلك اعتبار أن أي فرنسي يتم أسره في المعارك يجب أن يعتبر أسير حرب وأن يُعامل كذلك إلى أن تتاح فرصة تبادله مقابل أسير جزائري كما حرم تحريما قاطعا قتل أسير أعزل كما أكد أن أي عربي يقدم أسيرا فرنسيا يحصل على مكافأة قدرها 08 دورو وجدد الأمير أنه على أي عربي في حوزته أسير فرنسي أن يعامله معاملة حسنة وفي حال شكوى الأسير من سوء المعاملة ليس فقط أن المكافأة تسقط بل قد يرافق ذلك بعقوبة أخرى.

وقد أفرد الإنجليزي تشرشل الفصل السادس عشر من كتابه عن حياة الأمير لذكر حسن معاملة الأمير للأسرى الفرنسيين وبذلك كانت العناية الحكيمة والعاطفة الرحيمة التي أبداهها الأمير للأسرى مثالا حيا لحسن التعامل وهذا ما أرادت أن تصل إليه بنود القانون الدولي الإنساني المعاصر¹⁶.

ولقد كان الأمير مثالا حيا في تعامله مع كل الفئات وكل الأديان فقد كان من ضمن المراسلات التي أرسلها إلى أسقف الجزائر ما ورد فيه: (أرسل قسيسا إلى معسكري فسوف لا يحتاج إلى شيء وسوف أعمل على أن يكون محل احترام وتبجيل لأنه سيكون ذو وظيفة مزدوجة وهي أنه رجل دين وممثل لك وسوف يصلي يوميا بالمساجين ويواسيهم ويتراسل مع عائلاتهم وبذلك يكون واسطة في الخصوص لهم على.... كل ما يحتاجونه او يرغبون فيه مما يخفف عنهم شدة الأسر، كل ما سوف نطلبه منه عند وصوله لدينا أن يعد وعد شرف لا يتغير بان لا يتعرض في رسائله إلى الحديث عن معسكراتي وحركاتي)¹⁷.

فكان الأمير عبد القادر مجسدا للحوار الديني بكل أبعاده، وبعد أن نقل الأمير إلى السجن في مدينة طولون الفرنسية بعد عام 1847، وحسب شهادة "الكونت دوفيسي" أحد دعاة الاستعمار الفرنسي للجزائر الذي ذكر في كتابه نابليون الثالث والأمير عبد القادر كيف أن أعدادا من الأسرى الفرنسيين القدامى الذين تلقوا علاجا من قبل الأمير كانوا يأتون من مناطق نائية في اتجاه قصر "بو" وقصر "أمبواز" حيث كان الأمير معتقلا لتحية من كان منتصرا بالأمس¹⁸.

هذا ما أدى بالكثيرين من المؤرخين والكتاب إلى اعتبار الأمير رائدا في مجالات حوار الأديان بالإضافة إلى ما سبق التطرق إليه فقد تمت الإشادة به في الواحد والعشرين من إبريل 2006 بالملتقى المقام في قصر الأمم بجنيف من طرف مسؤولين أميين بدور الأمير عبد القادر الريادي في مجالات حقوق الإنسان والقانون الدولي الإنساني¹⁹.

ومن هؤلاء المشيدين المفوضة السامية لحقوق الإنسان السيدة "لويز آريور" والمفوض السامي اللاحقين "خوان انتونيو بوتيريس"، ورئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر "جاكوب كيللنبرغر"، وأشارت المفوضة لحقوق الإنسان بمظاهر التسامح التي برهن عنها الأمير عبد القادر.....منوهة إلى أننا في حاجة إلى الانفتاح على الآخر، واعتبر رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر أنه من الخطأ اعتبار أن القانون الدولي الإنساني قد ابتدأ من معاهدات جنيف، إذ أشار إلى أن رواد أسهموا في هذا المجال من قبل "هنري دينون" من أمثال....الأمير عبد القادر²⁰.

وقد اجتهد الأمير عبد القادر الجزائري أيما اجتهد في إرساء معالم القانون الدولي الإنساني اقتداء بسيرة نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم التي قامت الشريعة الإسلامية على أساسين رئيسيين وهما الضرورة الحربية والاعتبارات الإنسانية²¹ وهذا ما تجلّى في قوله صلى الله عليه وسلم (أنا نبي الرحمة أن نبي الملحمة) صحيح مسلم.

أ/مظاهر الملحمة (المقتضيات الحربية): وفق أحكام القانون الدولي الإنساني وطبقا لما جاءت به السنة النبوية فإن الحرب تهدف إلى تحقيق الانتصار باللجوء إلى السبل المشروعة في القتال، وقد قال الحق تبارك وتعالى ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾²²، وقال أيضا ﴿فَإِذَا تَفَقَّهْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنِ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾²³.

وقد كان من شجاعة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم متجلية منذ فتوته، حيث حضر حرب الفجار، أخرجهم أعمامه معهم، إذ يقول صلى الله عليه وسلم (كنت أنبل على أعمامي أي أ رد عليهم نبال عدوهم إذا رموهم بها) السيرة النبوية لابن هشام (1/221-224)، السيرة الحلبية (1/127-129) ب/ جانب الرحمة (مقتضيات الإنسانية وحقوق الإنسان): يقول الحق تبارك وتعالى مخبرا عن النبي المصطفى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾²⁴، ويقول أيضا ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمِيمَنَةِ﴾²⁵، ويقول أيضا ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ فَضْلاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾، ويقول المصطفى صلى الله عليه وسلم (إن الله تعالى جعلني عبدا كريما ولم يجعلني جبارا عنيدا) أخرج أبو داود وابن ماجه. (إنما يرحم الله من عباده الرحماء) رواه أبو داود والترمذي، وأخرج البيهقي في الدلائل، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (وإنما أنا رحمة مهداة).

ومما لا شك فيه أن مرجع أسس ومبادئ القانون الدولي الإنساني وقواعد الحرب كلها هو الشريعة الإسلامية في أصولها وقواعدها التي منها قول المصطفى صلى الله عليه وسلم (إن الله يحب الرفق في الأمور كلها) رواه البخاري في الأدب من صحيحه، وقوله أيضا (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا يُنزع من شيء إلا شانه) رواه مسلم في صحيحه، ويقول أيضا في حديث ابن الدرداء (من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير)، ومن مقتضيات الرفق عند النزاع المسلح:

مبدأ عدم الانتقام

مبدأ حظر الأسلحة غير المشروعة

مبدأ عدم التمثيل بالقتلى

مبدأ التمييز بين المقاتلين وغيرهم

كما كان من مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم بعد هزيمته قريش (ما تضمنون أني فاعل بكم، قالوا أخ كريم وابن أخ كريم، فقال صلى الله عليه وسلم أقول ما قال أخي يوسف لا تثرىب عليكم اليوم يغفر الله لي ولكم وهو أرحم الراحمين، (اذهبوا فأنتم الطلقاء) رواه الطبري في تاريخه.

وقد قال أحد الكتاب الغرب (فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متساحين مثل العرب ولا دينا سمحا مثل دينهم) ²⁶.

ولقد استنكر القرآن الكريم الأفعال الحاطة من الكرامة الإنسانية، واعتبر فرعون من المفسدين في الأرض بقوله عز وجل ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْـٰفِدِينَ ﴾ ²⁷.

وقال عز وجل في حكم المقاتلة: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾.

ويقول أحمد شوقي:

علمتم كل شيء يجهلون به حتى القتال وما فيه من الدم

دعوتهم بجهد فيه سؤدد هو الحرب أنظام الكونوالأمم

لولاها لم نر للدولات في زمن ما طال من عمد أو قر من دعم

أ/ مبدأ مراعاة القواعد الإنسانية في الحرب

جوهر وجود قواعد للقانون الدولي الإنساني أنها تضبط الحرب وتوجهها، وكل هذا لحماية الأنفس وحماية المستضعفين والضحايا الذين لا ضلع لهم في الحرب، ويقول علي كرم الله وجهه "إذا قدرت على عدوك، فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه... فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبرا، ولا تصيبوا معورا، ولا تجهزوا على جريح، ولا تهيجوا النساء بأذى، وإن شتمن أعراضكم، وسبين أمرا لكم، فإنهن ضعيفات القوى والأنفس والعقول، إن كنا لنؤمر بالكف عنهن، وإنهن لمشركات، وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالقهر، والهاوة فيعير بها وعقبه من بعده" ²⁸.

ب/ مبدأ النهي عن التكيل والتمثيل

كان صلى الله عليه وسلم فيما رواه سمرة بن جندب قال (كان النبي صلى الله عليه وسلم يحثنا على الصدقة وينهانا عن المثلة) وود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال "إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة) رواه مسلم.

وقال عمر بن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بشأن سهيل بن عمرو (دعني أنزع ثنيتي سهيل، ويدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيبا في موطن أبدا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا أمثل به فيمثل الله بي، وإن كنت نبيا" روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ومما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من قوله "لعبد الرحمن بن عوف حينما أمره على غزوة دومة الجندل (أغزوا جميعا في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغلوا، ولا تغلوا، ولا تغلوا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليدا، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم).

ج/ مبدأ التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين:

شُرِعَ القتال على من يعلن الحرب أو المحاربة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، ولا تعتدوا أي لا تقتلوا، وقال تعالى أيضا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، وقال أيضا ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون، وقد قال الإمام بن كثير في تفسير هذه الآية أن الله لم ينهى المؤمنين عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلون كالنساء والضعفة منهم²⁹.

د/ مبدأ عدم جواز ترحيل المدنيين أو غير المشتركين في القتال:

ينجر عن الحرب في الغالب وقوع أسرى، ولا تجيز الشريعة الإسلامية ترحيل سوى الأسرى الذين شاركوا في القتال أو كانوا ذا رأي فيه، حتى تتم مفادتهم بأسرى المسلمين، أو فرض شروط على العدو، أما غير هؤلاء فيجب تركهم في بلداتهم ولا يجوز ترحيلهم³⁰.

وهذا قبل أن تنص عليه أحكام القانون الدولي خاصة ما جاء في نص اتفاقية جنيف بشأن حماية الأشخاص المدنيين وقت الحرب (الاتفاقية الرابعة) لعام 1949 من أنه "يحظر النقل الجبري الجماعي أو الفردي للأشخاص المحميين أو نفيهم من الأراضي المحتلة إلى أراضي دولة الاحتلال أو إلى أرضي لأي دولة أخرى محتلة، أيا كانت دواعيه".

هـ/ عدم جواز تدمير الأشياء غير الحربية (الأعيان المدنية) إلا لمصلحة:

يقول الإمام الشوكاني (الكف عن التحريق وقطع الشجر وهدم العمران إلا لحاجة أو مصلحة) ويقول ابن تيمية (يجوز لنا أن نفسد أموال أهل الحرب، إذا أفسدوا أموالنا كقطع الشجر المثمر)³¹.

و/ معاملة أسرى النزاع المسلح

لقد كفلت الشريعة الإسلامية للأسير معاملة طيبة بعيدة عن الغضب والتعنت واستوجب الإسلام الرحمة بالأسير بل وإكرامه وإطعامه قال الحق تبارك وتعالى " ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا"³²، وقال النبي صلى الله عليه وسلم "استوصوا بالأسارى خيرا"³³.

فكان من مفاخر الإسلام العظمى إكرام الأسير وتوفير ما يحتاجه من الضروريات للأسرى، وكان من ذلك حينما أقبل أسارى بدر ففرقهم الرسول صلى الله عليه وسلم بين أصحابه وقال "استوصوا بالأسارى خيرا" قال أبو عزيز، "وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا دموا غدائهم وعشائهم خصوني بالخبز، وأكلوا التمر، لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها قال، فأستحي فأردها على أحدهم فيردها على ما يمسه"³⁴.

الخاتمة:

لا يمكن لأي كاتب ومهما كتب أن يوفي أمثال الأمير عبد لقادر الجزء اليسير من شرف بطولاتهم وإسهاماتهم النبيلة، ولكن من الواجب على كل مسلم أن يقف عند شمائل هؤلاء الرجال الذين رفعوا راية الحق وكانوا مضرب المثل في كل شيء.

وقد كان من أجل الشمائل التي اشتمل عليها الأمير عبد القادر بالمفهوم المعاصر تكريس وحماية حقوق الإنسان زمن النزاع والخلاف وآناء الحروب أو ما أضحي يسمى اليوم بالقانون الدولي الإنساني، حيث مقتندين بما جاءت به السنة النبوية المطهرة حيث يُعطى للإنسان مهما كان جنسه ولونه ولغته حقوقه الكاملة التي تعكس البعد الإنساني للرسالة المحمدية.

وكل هذا كان امتثالا لأوامر الحق تبارك وتعالى إذ قال: (يأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) سورة البقرة، الآية 208، وكذا قوله عز وجل (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) سورة البقرة، الآية 190، وكذا قوله عز وجل (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا) سورة الإنسان الآية 80.

كل هذا بخلاف ما عليه الأمر لدى اليهود الذين عاشوا لفترة من الزمن حالة من التكبر والاستعبد على غيرهن من الشعوب من منطلق كونهم شعب الله المختار وفق ما تنص عليه شريعتهم، وتنبع هذه النظرة من العقيدة اليهودية المخرفة، ومنها نشأت فلسفة اليهود في الحرب فكان اليهود يبيحون بل ويمجدون العدوان ويرونه حربا مقدسة، ومما ورد في توراتهم المخرفة "...الرب إلهك هو العابر أمامك... هو يبيدهم ويذلهم أمامك فتطردهم وتلكهم سريعا كما كلمك الرب"، ومما ورد أيضا "...وحيث تقرب مدينة كي تحاربها استدعها للصلح، فإن أجابتك للصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسلمك بل عملت معك حربا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة غنيمة تغنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطها الرب إلهك..."³⁵، هذا ما يوحى باتجاهات الفلسفة اليهودية ودعوات القتل والتدمير التي تقوم عليها الحرب وفق عقيدتهم المخرفة.

ومن كل هذا تراءى أن هنالك العديد من النتائج والتوصيات المتواضعة التي ينبغي التنويه إلى أهمها:

- ضرورة التأكيد على تضمين البرامج التعليمية هذه الشخصيات الفذة وبإسهاب حتى نذكر أنفسنا

وأجيالنا القادمة بما كان وما يجب أن يكون وهذا في كل الأطوار التعليمية والتربوية.

- الحرص على إعداد أقسام متخصصة في كليات الشريعة تحديدا ضمن الدراسات العليا لتحليل ودراسة والبحث في سيرة أعلام الدولة الجزائرية قديما وحاضرا.

- أهمية الترجمة في التعريف بشخصية الأمير عبد القادر وترجمة ما كتبه الغرب عنه من مذكرات ومؤلفات.

- التأكيد على الدور الذي يجب أن تلعبه وسائل الإعلام التقليدية والحديثة في الجزائر وفي العالم الإسلامي والعربي بتوضيح الصورة الحقيقية للإسلام ولنبى الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم من خلال التعريف بأمثال الأمير عبد القادر الجزائري، وبيان أن الرسالة المحمدية هي رحمة للعالمين وأنها جاءت لتحرير البشرية جمعاء من التسلط والاستعباد وإذاعة الألفة والرحمة بين الشعوب والقبائل عملا بقوله عز وجل في الآية 13 مِنْ سُورَةِ الْحُجُرَات ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

قائمة الهوامش المرجعية:

- ¹ سورة الأحزاب الآية 56.
- ² سورة المائدة الآيتان 16/15
- ³ سورة النساء الآية 65.
- ⁴ سورة النساء الآية 94
- ⁵ O'LEARY DE LACY, Arabic Trought an dits place in History,p08.
- ⁶ صالح بن عبد الرحمان الحصين، التسامح والعدوانية بين الإسلام والغرب، الرياض، 1429هـ، ص 26.
- ⁷ A.G, LEONARD, Islam,1959,p72.
- ⁸ جوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعتر، مكتبة الأسرة 1983، ص 134
- ⁹ محمد البزاز، المباديء المنظمة للعمليات الحربية بموجب الشريعة الإسلامية والقانون الدولي، مقال بمجلة الوصية الصادرة عن المنتدى الإسلامي للقانون الدولي الإنساني، السنة الأولى، يناير 2008، ص24
- ¹⁰ سورة الأنبياء، الآية 107
- ¹¹ سورة الأنفال الآية 61
- ¹² سورة النحل الآية 11
- ¹³ سورة البقرة الآية 118.
- ¹⁴ سورة البقرة الآية 256
- ¹⁵ سورة البقرة الآية 190
- ¹⁶ شارلز هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم وتحقيق الدكتور أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2009.
- ¹⁷ مصطفى بن التهامي، سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، تحقيق الدكتور يحيى بوعزيز، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1995.
- ¹⁸ نفس المرجع.
- ¹⁹ الامير عبد القادر تحقيق محمد الصغير نباقي، دار الامة، الجزائر، ط 1995.
- ²⁰ الأمير محمد، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، الإسكندرية، دون سنة النشر.
- ²¹ أحمد أبو الوفاء، النظرية العامة للقانون الدولي الانساني، ط 1 دار النهضة العربية، 2006، ص 16
- ²² سورة الفتح الآية 69

-
- ²³ سورة الأنفال الآية 57، ولفظ فشررد أي فعل بهم من القتل ما تفرق به من ورائهم من أعدائك، وقيل سمع بهم، وقيل نكل بهم عظة لمن ورائهم، ابن التركماني، بهجة الأريب في بيان ما في كتاب الله العزيز من الغريب، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 2002، ج 2، ص 239
- أحمد أبو الوفاء، المرجع السابق، ص 17.
- ²⁴ سورة الأنبياء الآية 107
- ²⁵ سورة البلد الآيتان 17، 18
- ²⁶ غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000
- أحمد أبو الوفاء، المرجع السابق، ص 19.
- ²⁷ سورة القصص الآية 04
- ²⁸ نهج البلاغة، دار الشعب، القاهرة، ص ص 239، 367
- أحمد أبو الوفاء، ص 167.
- ²⁹ أبو الفداء بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن الكريم، ج 1، دار الفكر العربي، بيروت، 2007، ص 187.
- ³⁰ أحمد أبو الوفاء، المرجع السابق، ص 171.
- ³¹ نفس المرجع.
- ³² سورة الإنسان، 08.
- ³³ أحمد أبو الوفاء، المرجع السابق، ص 181.
- ³⁴ نفس المرجع.
- ³⁵ رشاد عبد الله الشامي، الشخصية الإسرائيلية اليهودية والروح العدوانية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1986، ص 147.